الفصل السابع

بدرية أبو ربيع
أشهر مناضلة فلسطينية زمن القسام

سلوى بكر

تصلح قصتها المثيرة، لأن تكون فيلماً سينمائياً، أو مسلسلاً تليفزيونياً، فهي قصة مليئة بالأحداث والمفاجآت، وتستحق أن يتعرف عليها كثيرون ممن لا يعرفون إلا القليل عن تاريخ نضال المرأة الفلسطينية.

سبقت بدرية أبو ربيع مناضلات العالم الشهيرات، بسنوات طويلة، في حفر اسمها بلوحة الخلود، فقد سبقت جميلة بوحريد، في نضالها ضد الاستعمار، وعشرات من النساء العربيات اللواتي لا تنسى أسماؤهن. لكن قلائل هم الذين يعرفون حكاية هذه المناضلة الرائدة، والتي رحلت في أوائل ثمانينيات القرن الماضي بهدوء، وصمت.

كانت بدرية أبو ربيع أول فلسطينية يُحكم عليها بالإعدام، وأول عربية تتناول قضيتها وسائل الإعلام الأوروبية لتدخل في نطاق «الحرب الباردة» بين الحلفاء والنازي خلال الحرب العالمية الثانية.

تبدأ قصة بدرية أبو ربيع، عندما تزوجت خلال عشرينيات القرن الماضي من التاجر محمد خليل مرعي، و كانت، وقتذاك، لم تزل في العقد الثاني من عمرها، إذ أنها ولدت في العام ١٨٩٨، بإجزم (قضاء حيفا)، وكان زوجها مناضلاً ينتمي إلى جماعة المجاهد الكبير الشيخ عز الدين القسام، وكان يساهم في دعم وتمويل جماعة «الكف الأسود» الشهيرة، وغيرها من جماعات المجاهدين العاملين ضد الاحتلال

الإنجليزي للأراضي الفلسطينية.

كانت اجتماعات المجاهدين يعقد العديد منها بمنزل بدرية أبو ربيع، وسرعان ما بدأت تتحمس لقضية التحرير، وآمنت بضرورة الثورة، فأخذت تشارك على نحوٍ فعال في تغطية العمليات الفدائية أمنياً، فكانت تحمل السلاح داخل ردائها الفلسطيني التقليدي وتسلمه للذين سيقومون بالعمليات الفدائية، وبطريقة لا تجعل هناك أية إمكانية للاشتباه بهم من قبل العدو الإنجليزي أو الصهيوني، وعند الانتهاء كانت تأخذ السلاح مرة أخرى، بعد نجاح المهمة، وتعود به إلى بيتها، أو إلى الأماكن المقرر حفظه فيها، بعيداً عن الأنظار، كالآبار القديمة المهجورة، أو السقائف العالية للمنازل الخشبية الشعبية، وما إلى ذلك.

ورغم أن سنوات نضال بدرية أبو ربيع كانت بالنسبة للمرأة العربية سنوات صعبة، إذ أن الحجاب كان ما يزال سائدًا بمعناه الشامل، وليس على مستوى اللباس، فحسب، وكانت حركة المرأة خارج البيت صعبة للغاية، ومرصودة دوماً، فالتقاليد، والأعراف، والممنوع، يحاصر المرأة أينما ولت وجهها، رغم كل ذلك، لم تتوان بدرية عن القيام بدورها على أتم وجه، حتى أن ما قامت به شكل مفاجأة حقيقية للإنجليز، الذين ما تصوروا وقتها، أبداً، أن تقوم امرأة عربية، بسيطة، بدورٍ كالدور الذي قامت به بدرية أبو ربيع.

لقد اكتشف الإنجليز أمر بدرية أبو ربيع، عندما قتل بعض الثوار، واحداً من المتعاملين مع العدو في السوق البيضاء بحيفا، وكان ذلك في نهاية الثلاثينيات، وفي خلال المعركة التي دارت بينهم، وبين جنود العدو، جرح أحد الشباب فجاء، آوياً، إلى منزل بدرية، ليختبئ، ريثما تبرأ جراحه، ولكن أحد الخونة، من الجواسيس المتعاملين مع الإنجليز، شاهده، وأبلغ عنه السلطات، حيث كان ذاك الخائن يعمل خياطاً للأثواب، بجوار بيت بدرية، بدكان من الدكاكين، مما يتيح له مراقبة حركة

الداخلين، والخارجين، منه، وسرعان ما طوَّق الإنجليز البيت، وراحوا يفتشونه، ويقلبون ما فيه رأساً على عقب، ثم أخذوا في إخراج من بالبيت، فأخذوا محمد خليل مرعي، زوج بدرية، وكذلك زوج ابنتها، عمر الستينة، رغم أنه لم يكن على علاقة بالثوار، وسرعان ما اكتشفوا، من خلال التحقيقات، الدور الذي كانت تقوم به بدرية، ورغم أنها كانت في شهرها الأخير من الحمل، ورغم وجود أطفالٍ صغارٍ لديها، كذلك، إلا أنهم اقتادوها إلى السجن، دون أدنى رحمة، لتلد فيه، بعد ذلك، ابنتها انتصار.

وقد اتهمت بدرية، خلال سجنها، بممارسة النشاط الثوري المناهض لسلطات الاحتلال الإنجليزي، وأُدرج أسمها في قضايا عديدة، مماثلة، بالإضافة إلى قضية السوق الأبيض، التي اتهم فيها أربعة شبان آخرين، وسرعان ما قدمت بدرية مع الآخرين إلى محكمة عسكرية، تحت إشراف الحاكم الإنجليزي، وفي اليوم المحدد لتلك المحاكمة، اقتيدت بدرية من السجن إلى المحكمة، تحت حراسة الدبابات، وهناك حُكم عليها بالإعدام، مع رفاقها الأربعة، والذين كان منهم زعل، وقاسم، والمكحل.

بعد صدور حكم الإعدام، قام زوجها بتقديم التماسات عديدة للملك جورج الخامس، ملك إنجلترا، وكان يرفق التماسه بصور أطفاله الصغار، الذين لم يشبوا عن الطوق بعد، وبعد مداولات، خفف الحكم الصادر ضدها إلى المؤبد، بينما نفذ الإعدام في رفاقها الأربعة الآخرين، وكانوا جميعاً من الشباب، وتم إيداع بدرية بسجن بيت لحم، ولم يسمح لها إلا باصطحاب ابنتها الصغير الرضيعة، انتصار.

في تلك الأثناء، كانت الحرب الكونية الثانية قد اشتعل أوارها، وكانت إذاعة هتلر والنازي تتابع تفاصيل محاكمة بدرية، ورفاقها، لحظة بلحظة، وعندما حكم عليها بالإعدام، أذاعت حكومة هتلر الخبر، فوراً، وبهذا اكتشف الانجليز وجود

طابور خامس يعمل لصالح الألمان في فلسطين، فجن جنونهم.

تروي إحدى بنات بدرية ذكريات تلك الفترة البعيدة، فتقول باعتبارها شاهدة عيان: «كنت أرى أمي، وهي تخبئ السلاح، في الصفائح القديمة، والقدور الفخارية، كما أذكر بعد الإفراج عنها، أنها كانت تمر يومياً، وبصفة إجبارية، على المخفر الإنجليزي للشرطة، لتثبت وجودها بالمدينة، وكان ذلك يتم في الساعة الثانية عشر، وظل لمدة سنة كاملة».

تسترسل السيدة أم رياض، ابنة المناضلة، فتقول: «في البداية لم تقل لنا أبداً عن دورها، وكانت تضع السلاح بصدرها، وترتدي فوقه الفرلين، وهو منديل الرأس المنسدل على الصدر، فتخفي قطع السلاح، وتنفذ عملياتها بعد أن تخرج من البيت، كما لو كانت ذاهبة إلى السوق لشراء الأغراض».

تضيف أم رياض: «أثناء التحقيق، عذبت كثيراً، وشهد ضدها أربعة عشر شاهداً، وكانت هناك امرأة أخرى تلعب الدور ذاته، رفضت أمي أن تعترف عليها، كما رفضت الاعتراف على أي واحدٍ من المجاهدين الآخرين، رغم تعذيب الانجليز لها تعذيباً شديداً».

إن بدرية أبو ربيع مناضلة من طراز فريد، وصفحة ناصعة في تاريخ المرأة العربية بفلسطين.